معالم القرآن والسنة
MAᶜALIM AL-QURAN WA AL-SUNNAH

Journal of Ma'alim al-Quran wa al-Sunnah
Vol. 16, Special Issue, (2020), pp. 156-173
ISSN: 1823-4356 | eISSN: 2637-0328
Submission date: 15 October 2020
Accepted date: 15 November 2020

عوامل تكوين الحافظ ابن حجر العسقلاني العلمية

THE SCIENTIFIC FACTORS OF THE FORMATION OF AL-HAFIZ IBN HAJAR AL-ASQALANI SCHOLARSHIP

Shumsudin Yabi
Faculty of Quranic and Sunnah Studies, Universiti Sains Islam Malaysia
71800, Bandar Baru Nilai, Negeri Sembilan
E-mail: shumsudin@usim.edu.my

الملخص

يعدُّ الحافظ ابن حجر العسقلاني من أشهر علماء الحديث في زمانه، وزمن من بعده، له مصنفات كثيرة في الحديث وعلومه، وهي تُظهر تفنُّنَه وتنوع موضوعاته المتناولة المختلفة، وتبرز براعتَه في تجديد خدمة حديث النبي صلى الله عليه وسلم والمادَّة العلمية، وتقريبها إلى عموم المسلمين، يهدف البحث إلى التعرف عن العوامل والمؤثّرات التي عملت على تكوين وبلورة شخصية وعلم الحافظ ابن حجر الفكرية المعرفية، وقد استخدمت المنهج المكتبي الاستقرائي بجمع المواد ذات الصلة؛ ومن النتائج الرئيسة التي ظهر لنا من خلال هذا البحث المنزلة المرموقة والمكانة الرفيعة، التي حازها الحافظ ابن حجر بين أقرانه ومعاصريه، وساعدته على ذلك أمور منها مواهبه المتعددة من ذكاء وحافظة قويّة نشطة، وقدرة عجيبة على المطالعة، وطول النّفس في طلب العلم، والإنكباب على العلماء ومجالسهم، وأخذه في الطلب عن رؤوس أعلام عصره وحفّاظه، فتحصّل وتلقى عنهم، وانتفع بهم، حيث هيّأ الله تعالى له في كل علم وفنّ؛ نوابغه وجهابذته، وكذلك العصر الذي عاش فيه الحافظ ابن حجر في عصر دولة المماليك، حيث بلغ العلم قمّته، وازدهاره، وبحيث كان العلماء متوافرون.

الكلمات المفتاحية: ابن حجر، العسقلاني، الحديث، علماء.

ABSTRACT

Al-Hafiz Ibn Hajar Al-Asqalani is considered to be one of the most famous scholars of *hadith* in his time and the time after him. He has many compilations in *hadith* sciences which comprise different topics. He has a unique approach when dealing with the Hadith of Rasulullah SAW, with *hadith* sciences, and generally with Muslims. This research deals with the factors that have developed his character and intellect. His method was through reading and researching all of the related topics which subsequently had made his compilations to be placed at a prestigious level,

معالم القرآن والسنة
MAᶜALIM AL-QURAN WA AL-SUNNAH

Journal of Ma'alim al-Quran wa al-Sunnah
Vol. 16, Special Issue, (2020), pp. 156-173
ISSN: 1823-4356 | eISSN: 2637-0328

and made him distinctive from his peers. He is brilliant, knowledgeable, has a photographic memory, and has spent his life in seeking knowledge, devoted to scholars and their classes, obtaining knowledge, and has benefitted from prominent scholars of his time; in which Allah SWT had prepared him for the Islamic sciences. Notably, Al-Hafiz Ibn Hajar had lived in the era of the Mamluk state, when the Islamic sciences had reached its summit and flourished, and many scholars were produced.

Keywords: Ibn Hajar Al-Asqalani, hadith, scholars.

1. المقدمة

هناك عناصر هامة التي يكون لها الأثر في توجيه الإنسان إلى المعرفة وتحدّ له مقاديرها، وفي تكوين الشخصية الفكرية العلمية، وفي تنمية المواهب والقدرات، وخلق الملكات عند المرء حتى يتميّز عن أقرانه، ويكون نموذجاً في عصره ومصره. ومن العناصر الأساسية في تكوين واكتساب الملكة العلمية والمعرفة هو وجود الشيخ المربي والمؤثر؛ الذي يكون له الدور الكبير والمميز في تكوين شخصية الطالب المعرفية، وتنمية مواهبه العلمية والثقافية والفكرية بدرجة كبيرة ومؤثرة؛ لأن طالب العلم وخاصة وهو في مرحلة طلب العلم، وتكوين شخصيته العلمية في فترة الشباب يكون متأثرا كثيرا بشخصية الشيخ الذي ينهل منه المعلومات العلمية.

وكذلك الظروف البيئية: وهي العوامل المادية والاجتماعية والثقافية الحضارية التي تساعد في بناء التكوين الشخصي للإنسان، فالبيئة الاجتماعية تُكسِب الفرد الأنماط السلوكية من خلال تفاعله مع محيطه المجتمعي والذي قد يجعل منه فرداً مميزاً بذاته. وكل ذلك تتوقّف على مؤثّرات، ومكتسبات منها ما ترجع إلى شخص الإنسان في نفسه؛ أي ما يكون خَلْقِياً وفطرياً، ومنها ما يكون مكتسباً ترجع إلى الإنسان ومواهبه وطبيعته، وحسن استغلاله للظروف المحيطة به.

ويهدف هذا البحث في التعرّف على العوامل التي ساعدت على نبوغ، وتفوّق الحافظ ابن حجر العسقلاني (852هـ)؛ وجعلته يتبوّأ مكانة رفيعة، ومنزلة مرموقة بين أقرانه ومعاصريه، وأما منهج هذه الدراسة فيعتمد على منهج الاستقرائي المكتبي؛ الذي يقوم على جمع المادة العلمية المتعلقة بالموضوع ثم القيام بتحليله.

وقد ذكر بعض أهل العلم[1] أنّ الشخصية العلمية تتشكّل في أربعة عناصر مؤثّرة رئيسة، وهي:

أ. مواهب الإنسان ونزوعه وطبيعته، وهي العماد والأساس لغيره.

[1] أبو زهرة، محمد بن أحمد، 1978م، الشافعي حياته وعصره وأراؤه الفقهية، القاهرة، دار الفكر العربي، ص 34- 35.

معالم القرآن والسنة
MAʿALIM AL-QURAN WA AL-SUNNAH
Journal of Ma'alim al-Quran wa al-Sunnah
Vol. 16, Special Issue, (2020), pp. 156-173
ISSN: 1823-4356 | eISSN: 2637-0328

ب. من يصادفهم من العلماء، والموجّهين والشيوخ؛ الذين يسنّون له طريقاً ومنهجاً، ويسيرون به نحو الآفاق الواسعة الرحبة في المعرفة والعلم.

ج. حياته الخاصّة وتجاربه، ودراساته الشخصية.

د. العصر الذي أظلّه، والبيئة الفكرية العلمية التي عاش فيها.

وهذه ورقة علمية تتناول تكوين الشخصية العلمية عند الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله، وربط ودراسة تلك المؤثرات والعوامل الأربعة المذكورة آنفا، بحباة وسيرة الحافظ ابن حجر في تكوين المعرفة واكتساب العلم.

2. سيرة الحافظ ابن حجر العسقلاني.

أولا: اسمه ونسبه

هو شيخ الإسلام، أمير المؤمنين في الحديث، وإمام الحفّاظ في زمانه؛ قاضي القضاة شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن محمود بن أحمد بن حجر الكنانيّ النّسب، العسقلانيّ الأصل[2]، المصريّ المولد والمنشأ، القاهريّ الدار، الشافعيّ المذهب.

كنيته ولقبه: يكنّى بـ(أبي الفضل) كنّاه بذلك أبوه. **و** كان يلقب بـ(شهاب الدين).

نسبته: قال السّخاوي: "قرأت بخط صاحب الترجمة: رأيت بخط والدي، أنّه كناني في الأصل؛ يعني بكسر الكاف وفتح النون وبعد الألف نون ثانية، وكتب شيخنا مرّة الكناني القبيلة، قال: وكان أصلهم من عسقلان، وهي مدينة بساحل الشام من فلسطين"[3].

شهرته: وأما شهرته فهو (ابن حَجَر) واختلف هل هو اسم أو لقب ؟ فقيل هو لقب لأحمد الأعلى في نسبه، وقيل: بل هو اسم لوالد أحمد المشار إليه.

ثانيا: مولده ووفاته

[2] نسبة إلى عسقلان –بفتح العين المهملة، وسكون السين المهملة، وفتح القاف، وبعدها لام ألف، وفي آخرها نون–، ومنها أصل أجداده، وهي مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر، ويقال لها عروس الشام، انظر: الحموي، ياقوت بن عبد الله، 1995، معجم البلدان، بيروت، دار صادر، 137/4؛ السمعاني، عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني، 1962، الأنساب، حيدر آباد، الناشر: مجلس دائرة المعارف العثمانية، 4/ 190.

[3] السخاوي، محمد بن عبد الرحمن، 1999، الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر، بيروت – لبنان، دار ابن حزم للطباعة والنشر، 1/ 48.

معالم القرآن والسنة
MAᶜALIM AL-QURAN WA AL-SUNNAH
Journal of Ma'alim al-Quran wa al-Sunnah
Vol. 16, Special Issue, (2020), pp. 156-173
ISSN: 1823-4356 | eISSN: 2637-0328

ولد الحافظ ابن حجر–رحمه الله– في يوم الثاني والعشرين؛ من شهر شعبان سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة من الهجرة (773هـ)، في مصر القديمة (الفسطاط) في منزل كان يقع على شاطئ النيل[4].

وفاته

توفّي الحافظ –رحمه الله– إثر مرض بدأ معه من شهر ذي القعدة سنة (852هـ)؛ حيث أصيب بإسهال واستمر به المرض أكثر من شهر؛ ثم أسلم الروح إلى خالقها؛ بُعَيد صلاة العشاء الآخرة. من ليلة السبت المسفرة عن اليوم الثامن والعشرين من ذي الحجة الحرام سنة (852هـ)؛ عن عُمر بلغ تسعاً وسبعين سنة وأربعة أشهر، ودفن من الغد، وصلى عليه بمصلاة بكتمر المؤمني بالرميلة بالقاهرة، ومشى أعيان الناس من بيته داخل باب القنطرة إلى القرافة حيث دفن–تغمّده الله برحمته وأسكنه فسيح جنّاته–[5].

ثالثا: شيوخه وتلاميذه

مشايخه

تميّز الحافظ–رحمه الله– بكثرة المشايخ والعلماء الذين كانوا في عصره، والذين تلقى العلم على أيديهم، سواء في بلده مصر أو في البلدان التي رحل إليها من الديار الحجازية، والديار الشامية واليمنية.

قال تلميذه السخاوي (ت 902هـ)؛ عن كثرة شيوخ شيخه، وأنهم كبار في فنونهم:

"وأكثر جداً من المسموع والشيوخ، فسمع العالي والنازل، وأخذ عن الشيوخ والأقران فمن دونهم واجتمع له من الشيوخ المشار إليهم والمعوّل في المشكلات عليهم؛ ما لم يجتمع لأحد من أهل عصره، لأن كُلا منهم كان متبحّراً في علمه، ورأساً في فنّه الذي اشتهر به لا يلحق فيه"[6].

وقد اهتمّ الحافظ –رحمه الله– بذكر مشايخه، وذكرهم في كثير من مصنفاته؛ ومن ذلك ما أفردهم في كتابه "المجمع المؤسس للمعجم المفهرس"، استوعب فيه شيوخه فبلغ عددهم نحو خمسين وأربعمائة، وذكر فيه مروياته عنهم بالسماع أو الإجازة أو الإفادة.

وكذلك اعتنى تلميذه الوفيّ السّخاوي بجمع شيوخ أستاذه الحافظ، وحصرهم في كتابه "الجواهر والدرر" ووصل عددهم زهاء 644 نفساً.

---

[4] السخاوي، محمد بن عبد الرحمن، 1992 م، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، بيروت، دار الجيل، 36/2.

[5] ابن فهد المكي، تقي الدين محمد بن فهد الهاشمي، 1998م ، لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ، بيروت، دار الكتب العلمية، ص 337.

[6] السخاوي، الضوء اللامع، 2/ 37.

معالم القرآن والسنة
MAᶜALIM AL-QURAN WA AL-SUNNAH
Journal of Ma'alim al-Quran wa al-Sunnah
Vol. 16, Special Issue, (2020), pp. 156-173
ISSN: 1823-4356 | eISSN: 2637-0328

وأكتفي هنا بذكر بعض أشهر شيوخه العلماء البارزين في كل فنّ، الذين أكثر من ملازمتهم، والتلقّي عنهم، وهم :

ومن أبرز شيوخه في القراءات التنّوخي: إبراهيم بن أحمد التنوخي، الدمشقي المنشأ، نزيل القاهرة، ولد بدمشق سنة (709هـ)، وتوفي بمصر سنة (797هـ)[7].

عُني ومهر بالقرءآت، وكان شيخ الديار المصرية في القراءات والإسناد، وقد سمع منه خلق كثير، وتخرّجوا به.

ومن أبرز **شيوخه في الفقه وأصوله: الأبناسي**: إبراهيم بن موسى الأبناسي، شيخ الشيوخ بالديار المصرية، ولد سنة (725هـ)، وتوفي سنة (802هـ) راجعاً من الحج. (من مصنفاته: "العدّة عن رجال العمدة"، و"الدرة المغنية في شرح الألفية"، و"الشّذا الفيّاح من علوم ابن الصلاح"[8].

وابن الملقّن: عمر بن علي الأنصاري، أبو حفص، المعروف بابن الملقّن، أحد شيوخ الشافعية، ولد بالقاهرة سنة (723هـ)، وتوفي سنة (804هـ)، ومهر في الفنون، واعتنى بالتصنيف، وصنّف في كل فنّ. ومن أهم كتبه ومصنّفاته: شرح المنهاج في الفقه الشافعي، في ثمانية مجلدات، والبدر المنير في تخريج أحاديث الرافعي، في سبع مجلدات، وتخريج أحاديث مختصر المنتهى لابن الحاجب، والإعلام بفوائد عمدة الأحكام وغيرها[9].

البلقيني: هو سراج الدين عمر بن رَسْلان الشافعي، ولد سنة (724هـ) ببلقينة من قرى مصر، وتوفي سنة (805هـ) بالقاهرة، كان أوسع أهل عصره معرفة وعلماً، واشتهر بسعة الحفظ، وكثرة الإطلاع، فصنّف التصانيف الواسعة، ومن أشهر تصانيفه: "محاسن الإصطلاح وتضمين الحديث على مقدّمة ابن الصلاح"، في علم مصطلح الحديث، وشرح على صحيح البخاري سمّاه "الفيض الجاري على صحيح البخاري"، وتعقيبات على الروضة في عدّة مجلدات وغيرها[10].

ومن أبرز **شيوخه في الحديث**:

---

[7] من مصادر ترجمته: ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحيّ، 1998م.، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت، دار الكتب العلمية، 6/ 363، ابن حجر، شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد ابن حجر العسقلاني، 1969، إنباء الغمر في أبناء العمر، مصر، الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، 3/ 398.

[8] من مصادر ترجمته: ابن حجر، إنباء الغمر في أبناء العمر، 2/ 112، السخاوي، الضوء اللامع، 1/ 173، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 7/ 352.

[9] من مصادر ترجمته: ابن حجر، أنباء الغمر بأبناء العمر، 2/ 216، السخاوي، الضوء اللامع، 100/6، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 7/ 170، الشوكاني، محمد بن علي، 2006، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، دمشق ، دار ابن كثير، 1/ 508.

[10] من مصادر ترجمته: ابن حجر، أنباء الغمر، 2/ 245، السخاوي، الضوء اللامع، 6/ 85، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 7/ 176، ابن تغري بردي، جمال الدين يوسف، 1413هـ- 1992م. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، بيروت، دار الكتب العلمية، 12/ 280.

معالم القرآن والسنة
MAᶜALIM AL-QURAN WA AL-SUNNAH
Journal of Ma'alim al-Quran wa al-Sunnah
Vol. 16, Special Issue, (2020), pp. 156-173
ISSN: 1823-4356 | eISSN: 2637-0328

العراقي: هو زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقيّ شيخ الحديث في الديار المصرية، حافظ الدنيا في عصره، ولد سنة (725هـ) بمنشأة المهراني بين مصر والقاهرة، وتوفي سنة (806هـ).

وصنّف المصنفات العديدة، وخاصة علم الحديث؛ ومنها: "نظم الألفية في علوم الحديث" المعروف بألفية العراقي، و"التقييد والإيضاح لما أطلق وأغلق من كتاب ابن الصلاح"، و"المغني عن حمل الأسفار في الإسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار" وهو تخريج لأحاديث" إحياء علوم الدين" للغزالي وغيرها[11]. ويعتبر الحافظ العراقي من أكبر وأجلّ شيوخ الحافظ، فقد لازمه زمناً وتأثّر به من بين شيوخه، وتخرّج وانتفع به، وبعلمه وتقواه.

الهيثمي: هو نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، أبو الحسن المصري، ولد سنة (735هـ) بالقاهرة، وتوفي سنة (807هـ). نشأ بالقاهرة، وصحب ولازم الحافظ العراقي وهو صغير، فاغترف من علمه وانتفع به، وتخرّج به في الحديث، وقرأ عليه أكثر تصانيفه، وقد تزوّج من ابنة شيخه العراقي، وكان يعتمد عليه كثيراً من أموره.

ومن أشهر مصنفاته: "غاية المقصد في زوائد المسند"، أي مسند الإمام أحمد، و"كشف الأستار عن زوائد البزار"، و"المقصد العلي في زوائد أبي يعلى الموصلي"، و"البدر المنير في زوائد المعجم الكبير" للطبراني، و"مجمع البحرين في زوائد المعجمين" أي الصغير والأوسط للطبراني أيضا، وجمعها كلها في كتابه" مجمع الزوائد ومنبع الفوائد"، و"البغية في ترتيب أحاديث الحلية" وغيرها[12].

ومن أبرز **شيوخه في اللغة العربية**:

الفيروزآبادي: هو مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازيّ، الفيروزآبادي، الشافعي. ولد سنة (729هـ) وتوفي سنة (817هـ) بزبيد من بلاد اليمن، كان عديم النّظير في اللغة في عصره، نظماً ونثراً بالعربية والفارسية، التقى به الحافظ في رحلته إلى بلاد اليمن ، وأخذ عنه اللغة. له تصانيف كثيرة منها:

"بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز"، و"شوارق الأنوار العلية في شرح مشارق الأنوار النبوية"، وله شرح على صحيح البخاري سمّاه "منح الباري بالسيح الفسيح الجاري في شرح صحيح البخاري"، وفي التاريخ له" نزهة الأذهان في تاريخ أصبهان"، وكتابه الذائع الصِّيت، الذي ليس له نظير "القاموس المحيط" في اللغة[13].

---

[11] من مصادر ترجمته: السخاوي، الضوء اللامع، 4/ 171، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 7/ 182، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 384/12.

[12] من مصادر ترجمته : ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 195/7، السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، 1967م، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، 1/ 362، الشوكاني، البدر الطالع، 1/ 441.

[13] من مصادر ترجمته: السخاوي، الضوء اللامع، 10/ 274، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 7/ 256، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 13/ 274.

معالم القرآن والسنة
MAᶜALIM AL-QURAN WA AL-SUNNAH
Journal of Ma'alim al-Quran wa al-Sunnah
Vol. 16, Special Issue, (2020), pp. 156-173
ISSN: 1823-4356 | eISSN: 2637-0328

فهؤلاء هم من أجلّ مشايخ الحافظ ابن حجر–رحمه الله–، وأساتذته الكبار الذين لازمهم واستفاد من علمهم، وأخلاقهم وآدابهم؛ فكان لهم الأثر الحسن في تكوين شخصيته الفذّة، وتأثّر بهم في تصانيفه الكثيرة النافعة البديعة.

تلاميذه

إنّ المكانة العلمية السّامقة؛ التي تبوّأها الحافظ ابن حجر أكسبته شهرة واسعة، فأصبح مهوى أفئدة طلبة العلم، ومحطة ترحالهم، حيث توافدوا عليه من الآفاق، وحضر دروسه العلماء والأعيان؛ بل قد استفاد منه كثير من شيوخه.

قال السخاوي (الضوء اللامع، 39/7) في ذكر شهرة وذياع صيت شيخه الحافظ: "واشتهر ذكره، وبعد صيته، وارتحل الأئمّة إليه، وتبجّح الأعيان بالوفود عليه، وكثرت طلبته؛ حتى كان رؤوس العلماء من كل مذهب من تلامذته، وأخذ الناس عنه طبقة بعد أخرى، وألحق الأبناء بالآباء والأحفاد؛ بل وأبناؤهم بالأجداد، ولم يجتمع عند أحد مجموعهم"[14].

ويمكن إرجاع أسباب كثرة طلبة الحافظ ابن حجر –رحمه الله–؛ إلى ما كان يتّصف به الحافظ من شهرة بين علماء عصره، ومكانته العلمية الرفيعة التي تبوّأها، وكذلك تقلّده لمنصب قاضي القضاة الشافعية في الديار المصرية، وكذلك تفنّنه وبراعته في علوم وفنون متعدّدة؛ جعلته مرام أفئدة وقلوب طلبة العلم من كل أنحاء مصر وخارجها، وأيضاً ما كان يتمتّع به من دماثة الأخلاق، ورحابة الصدر، وعقده لمجالس إملاء الحديث وسماعه، وصرفه الأوقات للطلبة، وكذلك منها كثرة مصنّفاته وتآليفه في مختلف الفنون.

ومنها رحلاته العلمية في طلب العلم، والتقائه بعلماء آخرين في دول وأمصار عديدة؛ فكان في حال طلبه مفيداً في زي مستفيد.

وهنا أكتفي بذكر أهم وأشهر تلاميذه؛ وهم:

السّخاوي: محمد بن عبد الرحمن شمس الدين السّخاوي الأصل، القاهري المولد، الشّافعي المذهب، ولد سنة (831هـ). وتوفي سنة (902هـ) بالمدينة النّبوية، ودفن بالبقيع. من مصادر ترجمته:

من أجلّ تلامذة الحافظ ابن حجر وأكثر الآخذين عنه، فأكثر من ملازمته، والمثول بين يديه، وحمل عنه ما لم يشاركه فيه غيره. من تصانيفه: "فتح المغيث في شرح ألفية الحديث للحافظ العراقي"، و"المقاصد الحسنة في الأحاديث الجارية على الألسنة"، و"الضوء اللامع لأهل القرن التاسع" وغيرها[15].

---

[14] السخاوي، الضوء اللامع، 39/7.

[15] من مصادر ترجمته: السخاوي، الضوء اللامع، 2/8، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 15/8، ا الشوكاني، البدر الطالع، 2/ 184.

معالم القرآن والسنة
MAᶜALIM AL-QURAN WA AL-SUNNAH
Journal of Ma'alim al-Quran wa al-Sunnah
Vol. 16, Special Issue, (2020), pp. 156-173
ISSN: 1823-4356 | eISSN: 2637-0328

الكمال ابن الهمام: هو محمد بن عبد الواحد السيواسي الأصل؛ المعروف بابن الهمام الحنفي، ولد سنة (790هـ)، وتوفي بالقاهرة سنة (861هـ). وكان عالماً مشاركاً في علوم كثيرة، وله عدة مصنفات منها: "فتح القدير في شرح الهداية" في فروع الفقه الحنفي، و"التحرير في أصول الفقه"[16].

ابن فهد المكي: هو محمد بن محمد بن فهد الهاشمي، المكي، ولد بمصر سنة (795هـ)، وتوفي بمكة سنة (871هـ). برع في الحديث والتاريخ، وفاق أقرانه، ومن مؤلّفاته: "نهاية التقريب وتكميل التهذيب بالتذهيب", و"لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ"[17].

برهان الدين البقاعي: إبراهيم بن عمر بن حسن الرُباط، برهان الدين أبو الحسن البقاعي الشافعي، ولد سنة (809هـ)، وتوفي سنة (885هـ) بدمشق.. وأخذ العلم عن أساطين عصره، وصّنف تصانيف عديدة؛ منها: "نظم الدرر في تناسب الآي والسور" في التفسير، و"عنوان الزمان في تراجم الشيوخ والأقران"[18].

زكريا الأنصاري: زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري السّنيكي، زين الدين الشافعي، قاضي القضاة، ولد سنة (826هـ)، وتوفي سنة (925هـ) بالقاهرة، ودفن بجوار الإمام الشافعي –رحمهما الله–.

ومن تصانيفه : "فتح الرحمن بكشف ما يلتبس من القرآن"، و"تحفة الباري على صحيح البخاري"، و"غاية الوصول في شرح الفصول"، و" فتح الباقي بشرح ألفية العراقي" وغيرها[19].

فهؤلاء المذكورون هم بعض من أبرز تلامذة الحافظ ابن حجر –رحمه الله–، الذين تلقّوا العلم والمعرفة على يديه، وتخرّجوا به، واشتهروا بعده، وكان رفيقاً بهم، يسأل عنهم، ويلبي حاجاتهم، ويبسط لهم وجهه، وكانت أوقاته منصرفة إليهم.

3. مكونات تكوين الحافظ ابن حجر العلمية.

أولا: مواهبه وطبيعته ونزوعه

وهب الله تعالى الحافظ ابن حجر –رحمه الله– و أودع في نفسه ذكاءً حاداً، وحافظة وذاكرة قويّة نشطة، وقدرة عجيبة على المطالعة، وطول النّفس في طلب العلم، والإنكباب على العلماء ومجالسهم.

[16] من مصادر ترجمته: ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 7/ 298، ا الشوكاني، البدر الطالع، 2/ 201.

[17] من مصادر ترجمته: ا الشوكاني، البدر الطالع، 2/ 259.

[18] من مصادر ترجمته: ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 8/ 16، السخاوي، الضوء اللامع، 1/ 101.

[19] من مصادر ترجمته: ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 8/ 134، السخاوي، الضوء اللامع، 1/ 205، الشوكاني، البدر الطالع، 1/ 252.

معالم القرآن والسنة
MAᶜALIM AL-QURAN WA AL-SUNNAH
Journal of Ma'alim al-Quran wa al-Sunnah
Vol. 16, Special Issue, (2020), pp. 156-173
ISSN: 1823-4356 | eISSN: 2637-0328

وقد وصف تلميذه ابن فهد المكي شيخه الحافظ ابن حجر بقوة الحفظ؛ فقال: "وكان لديه ذكاء وسرعة حافظة؛ بحيث أنه حفظ سورة "مريم" في يوم واحد، وكان يحفظ الصحيفة من "الحاوي الصغير"، من مرتين، الأولى تصحيحاً والثانة قراءة في نفسه، ثم يعرضها حفظاً في الثالثة"[20].

ولم يكن –رحمه الله– حفْظه الدرس على طريقة الأطفال؛ بل كان حفظه تأملاً وفهماً على طريقة الأذكياء في ذلك غالباً، "وشهد له القدماء بالحفظ والثّقة، والأمانة والمعرفة التامّة والذهن الوقّاد، والذكاء المفرط، وسعة العلم في فنون شتّى"[21].

وكان –رحمه الله– سريع القراءة مع الضبط والفهم، وذكر أنه قرأ صحيح مسلم في خمسة مجالس سوى مجلس الختم، وذلك في نحو يومين وشيء، وقرأ صحيح البخاري كلّه في عشرة مجالس، والنسائي الكبير في عشرة مجالس كل مجلس منها قريب من أربع ساعات.

وأغرب ما وقع له في الاسراع أنّه في رحلته إلى بلاد الشام؛ قرأ المعجم الصغير للطبراني في مجلس واحد، بين صلاتي الظهر والعصر، وفي مدة إقامته بدمشق –وكانت شهران وثلث شهر– قرأ فيها قريباً من مائة مجلد مع ما يعلّقه، ويقضيه من أشغاله[22].

وكان –رحمه الله– سريع الكتابة، ولذا قد كتب بخطه ما لا يدخل تحت الحصر، ولا يجري في كتاباته على نمط واحد، وكان التغيير في كتاباته كثيرة، بحكم أنّه كان يراجع ويحقّق النظر في كتاباته دائماً؛ حتى تصير مبيّضته مسودّة.

وامتاز الحافظ ابن حجر–رحمه الله– بتفوّق التّصوّر، وسرعة الإدراك، واتّساع النظر، وبحسن استغلاله للوقت فيما يفيده؛ بحيث "كان –رحمه الله– لسعة حفظه ووفور استحضاره؛ لا يمتنع من كتابة الفتاوى بل والتصنيف وغيره في حالة الإسماع، ولقد حكى قاضي القضاة البدر التّنَسي المالكي (ت 853هـ) أنه قال: "كنت آتيه للقراءة عليه؛ فلا آراه يترك الكتابة حين قراءتي عليه، فعل ذلك معي مراراً، فقلت في نفسي: أنا أجيء من المكان البعيد، وهو لا يعبأ بي، فعسى أن يحصل خلل أو تحريف، وصرت في ألم بذلك، فأضمرت في نفسي يوماً أنني أتّعمد اسقاط شيء أمتحنه به، ففعلت ذلك، فبمجرّد أن مررت فيه رفع رأسه، وقال: أعدْ، فأعدت القراءة على الصواب، فأطرق، وعلمت أنه غير غافل عني"[23].

---

[20] ابن فهد المكي، لحظ الألحاظ، ص 326.

[21] السخاوي، الضوء اللامع، 39/7.

[22] انظر : السخاوي،، الجواهر والدرر، 1/ 103- 104، ابن فهد المكي، لحظ الألحاظ، ص 336.

[23] السخاوي، الجواهر والدرر، 1/ 319.

معالم القرآن والسنة
MAᶜALIM AL-QURAN WA AL-SUNNAH
Journal of Ma'alim al-Quran wa al-Sunnah
Vol. 16, Special Issue, (2020), pp. 156-173
ISSN: 1823-4356 | eISSN: 2637-0328

وكذلك أنه شـوهد–رحمه الله– "يوماً ما بالمدرسـة الصـالحية النّجمية، وهو جالس في بعض بيوتها؛ ولم يكن عنده إذ ذاك شـيء من الكتب؛ فاسـتدعى من بعض من حضـره مصـحفاً؛ فبادر لذلك؛ فأخذ في التّلاوة منه، فمرّ فيه على سورة أخطأ الكاتب في عدّ آيها، فكتب مقابلها بالهامش الصواب كذا، أو بل عدتها كذا؛ فلم يسهل عليه –رحمه الله– أن يجلس بطّالاً"[24].

وكان يوزّع أوقاته بين الطلبة؛ وفي الإقراء والإملاء، فوقته مقسّـــمة وموزّعة ما بين تأليف وتصـــنيف، وبين إملاء وسماع وتدريس وقضاء؛ وغير ذلك من الأعمال الجليلة التي تولاها.

وكان –رحمه الله– في نفســه همّة عالية، وعزيمة متينة صــادقة؛ في المضــيّ الجادّ في طلب العلم، فأقبل على العلم بكلّيته، وما تحلّى به من الصبر على الشدائد، وتحمّل المشاق والمخاطر والصعاب، وبعده و اغترابه عن الأهل والأصحاب، في سفرياته إلى البلاد المختلفة.

وكان منصرفاً إلى المطالعة والقراءة، والسماع والعبادة، والتصنيف والإفادة، والإفتاء وغيرها من الأعمال التي شغل بها حتى أواخر حياته–رحمه الله–.

قال المؤرّخ ابن العماد الحنبلي (ت 1089هـ): فـ"كان–رحمه الله– صبيح الوجه، للقصر أقرب، ذا لحيّة بيضاء، نحيف الجسم، فصيح اللسان، شجيّ الصوت، جيد الذكاء، عظيم الحذق، راوية للشعر وأيام من تقدَّمه ومن عاصره، هذا مع كثرة الصوم، ولزوم العبادة، واقتفاء السلف الصالح، وأوقاته مقسّمة للطلبة، مع كثرة المطالعة والتأليف، والتصدّي للإفتاء والتصنيف".

و"انتهى إليه معرفة الرجال، واستحضارهم، ومعرفة العالي والنازل، وعلل الأحاديث، وغير ذلك، وصار هو المعوّل عليه في هذا الشأن في سائر الأقطار ، وقدوة الأمة، وعلامة العلماء، وحجة الأعلام، ومحيي السنة"[25].

وقال العلامة فقيه الشام ابن قاضي شهبة[26] (توفي 851هـ) بعد مديح وثناء طويل: "وبالجملة فهو إمام زمانه، وحافظ وقته وأوانه، وعنده من الذكاء والفطنة، وصفاء القريحة ما تحيّر فيه الأبصار"[27].

---

[24] المصدر السابق، 1/ 110.

[25] ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 7/407- 409.

[26] هو تقي الدين أبو بكر أحمد بن محمد بن قاضي شهبة الشافعي. انظر في ترجمته: السخاوي، الضوء اللامع، 1/ 21، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 7/ 405.

[27] السخاوي، الجواهر والدرر، 1/ 243.

معالم القرآن والسنة
MAᶜALIM AL-QURAN WA AL-SUNNAH
Journal of Ma'alim al-Quran wa al-Sunnah
Vol. 16, Special Issue, (2020), pp. 156-173
ISSN: 1823-4356 | eISSN: 2637-0328

ويقول تلميذه الأمير الفاضل تغري برمش الفقيه نائب القلعة[28](ت 852هـ): "فهو إمام دهره وحافظ عصره، بل أظن أن مصر ما أخرجت مثله؛ حافظاً متقناً، ولا فقيهاً شاعراً كاملاً مفتياً...قد جمع الله له التفسير والفقه، والحديث والشعر والأدب، والمال والسعة، والجاه والشرف، وطول العمر وعلو الرتب وصحة العقل والنقل، وحسن التأليف مع الإيجاز والتحقيق، والترتيب والسعد في التصنيف"[29].

وقال تلميذه السخاوي في وصفه بعد أن ذكر في شهرته وارتحال الأئمة إليه: "مع شدّة تواضعه وحلمه وبهائه، وتحرّيه في مأكله ومشربه وملبسه، وصيامه وقيامه، وبذله وحسن عشرته، ومزيد مداراته، ولذيذ محاضراته، ورضى أخلاقه، وميله لأهل الفضائل، وإنصافه في البحث، ورجوعه إلى الحق، وخصاله التي لم تجتمع لأحد من أهل عصره، وقد شهد له القدماء بالحفظ والثّقة، والأمانة والمعرفة التامة، والذّهن الوقّاد، والذّكاء المفرط، وسعة العلم في فنون شتى"[30].

وكان أعجوبة في سرعة الفهم، وفي الحفظ، وفي حسن التصوّر؛ له حدس يظن أنه الكشف، وفي سرعة إدراكه واتّساع نظره ووفور آدابه.

ثانيا: طلبه العلم على العلماء والمشايخ

كان الحافظ ابن حجر–رحمه الله– ذا همّة عالية، وعزيمة قويّـــة، فأخذ في الطلب عن رؤوس أعلام عصره وحفّاظه، فتحصّـــل وتلقى عنهم، وانتفع بهم، وارتحل في ســـبيل ذلك، وجدّ في الإنكباب، وشمّر عن ســـاعد الجدّ؛ وواصل الغدو والـرواح، حيث هيّـأ الله تعالى له في كل علم وفنّ؛ نوابغه وجهابذته، وكان –رحمه الله– يفـيد ويستفيد في آن واحد، وكان متواضعاً صبوراً في طلب العلم، ومن خصـاله وصفاته في طلب العلم؛ أنّه كان يأخذ العلم حيث وجده، ولا يجد غضـاضـة في ذلك؛ فالحكمة ضـالة المؤمن أخذها حيث وجدها، فالسـلف كانوا يأخذون العلم عن الأصاغر؛ إذا دعا لذلك أمر.

قال السّخاوي عن شيخه في ذلك: "وكان دأبه عدم التحاشي عن التقاط الفائدة، والسماع ممن هو أعلى سـنداً منه، ولو كان دونه في المرتبة على جاري عادة الأئمة، وبعده عن ذلك علو منصـبه، بل يتـــــظاهر بفعله مع إمكان خلاف ذلك"[31].

---

[28] هو سيف الدين أبو محمد تغري برمش بن عبد الله الجلالي المؤيدي الفقيه، الحنفي، نائب القلعة بالديار المصرية. انظر في ترجمته: السخاوي، الضوء اللامع، 3/ 33، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 7/ 273.

[29] السخاوي، الجواهر والدرر، 1/ 244.

[30] السخاوي، الضوء اللامع، 39/2.

[31] السخاوي، الجواهر والدرر، 1/ 123.

معالم القرآن والسنة
MAᶜALIM AL-QURAN WA AL-SUNNAH
Journal of Ma'alim al-Quran wa al-Sunnah
Vol. 16, Special Issue, (2020), pp. 156-173
ISSN: 1823-4356 | eISSN: 2637-0328

وقد قال أيضاً عن أخذ الحافظ عن كبار مشايخ عصره، الذين يشار إليهم بالبنان: "واجتمع له من الشيوخ الذين يشار إليهم، ويعـــوّل في حل المشكلات عليهم، مالم يجتمع لأحد من أهل عصره، لأن كل واحد منهم كان متبحّراً، ورأساً في فنّه الذي اشتهر به، لا يلحق فيه"[32].

فالعلامة البلقيني مشهور في سعة الحفظ، وكثرة الإطلاع، وخاصّة في الفقه على المذهب الشافعي، والحافظ ابن الملقّن في كثرة التصانيف في فنّي الفقه والحديث، وشيخه الحافظ العراقي علَم في معرفة علم الحديث ورجاله، وقد شهد له بأنه أعلم أصحابه بالحديث، والحافظ الهيثمي في حفظ المتون واستحضارها، والعلامة مجد الدين الشيرازي في حفظ اللغة، واطلاعه عليها.

والعلامة الغماري في معرفة العربية ومتعلقاتها، والأبناسي في حسن تعليمه، وجودة تفهيمه، والعلامة العزّ بن جماعة في تفـــنّنه في علوم كثيرة؛ بحيث قيل أنه يعرف خمسة عشر علماً لا يعرف علماء عصره أسماءها، والتنّوخي في معرفة علم القراءات وعلو سنده فيها، والبدر البشتكي في علم الأدب واللغة وغيرهم.

ثالثا: حياته الخاصة وتجاربه، ودراساته الشخصية

وهذا العامل يكون أكثر تأثيراً؛ لأنه يتكوّن في نفس الإنسان منذ صغره، وتتأصّل فيه حبّ ما شبّ و تربّى عليه ، فيرث الإنسان منذ صغره أخلاق، وسلوك أسرته، ومنبع نشأته وصباه.

فالحافظ ابن حجر –رحمه الله–؛ كان من أسرة علمية محافظة، فوالده كان محبّاً للعلم والعلماء، وكان يصحبه إلى مجالس العلم، و هكذا كان لدور أسـرة الحافظ وعنايتها بالعلم؛ لهو أكبر الأثر في توجّهه، ورسمه طريقاً نحو العلم، والجدّ في تحصيله.

وكان هناك أيضـاً عامل الثّراء والغنى لأسـرته؛ كان له الأثر الواضـح؛ في إنقطاعه للعلم والرحلة إليه، وشـراء الكتب والأوراق، ومستلزماته، ولا يخفى كذلك راحة البال والفكر عن هموم الدنيا وملذاتها، وعن التفكير في تحصيل لقمة العيش.

ومن ذلك أيضاً أن الحافظ –رحمه الله– رزق بالصحبة الصالحة، والرفقة الطيبة؛ الذين كانوا غاية في الديانة والتواضـــع، والاعتناء بالبيان، والاهتمام بفنونه، والبعد عن التوغّل في الصـــفات المذمومة القبيحة، فكانوا يعينون بعضـهم بعضـاً بالنصـح والتوجيه والجدّ في الطلب، وكانوا يسـاعدون بعضـهم في القراءة، والعرض والإملاء، والكتابة والمذاكرة، والعارية وغير ذلك[33].

---

[32] السخاوي، الضوء اللامع، 37/7.

[33] انظر : السخاوي، الجواهر والدرر، 1/ 109.

معالم القرآن والسنة
MAᶜALIM AL-QURAN WA AL-SUNNAH
Journal of Ma'alim al-Quran wa al-Sunnah
Vol. 16, Special Issue, (2020), pp. 156-173
ISSN: 1823-4356 | eISSN: 2637-0328

وكما كانت لرحلاته العلمية في داخل مصـــر وخارجها، والتقاؤه بكبار العلماء، وأخذه العلم عنهم، الأثر الكبير في تكوين حصيلته العلمية؛ فتكوّنت لديه وتجمّعت علوم في فنون شتى.

وأضـــف إلى ذلك مناصـــبه ووظائفه الهامّة؛ التي تولاّها وشـــغلها في فترة حياته، ومنها التدريس والخطابة، والوعظ والإفتاء ، وأيضـــاً تسـنّمه منصـب القضـــاء لمدة زمنية طويلة. وهذه الوظائف مكّنته من الإتصـــال المباشـــر بالمصـادر الأولية لأحداث ذلك العصـر؛ سـواء كانت المصـادر هي السـلاطين أنفسـهم، أو كبار رجالات الدولة، أو كبار العلماء وطلبة العلم، وتعامله ومحاكاته للمجتمع. فمن شـأنها توسّـع مداركه في معالجة الأمور، وتبصّـره بأحوال الناس ومشـاغلهم، وتواريخهم، الذي كان له الأثر في تآليفه؛ وخاصـة في مصـنفاته التاريخية ككتاب "إنباء الغمر بأنباء العمر".

ومن العوامل التي توفرت لديه أيضـــاً؛ توفر الكتب والمراجع العلمية، وكثرة خزانات الكتب في عصـــره، وفي بلاده خاصـة مصـر. وهي لها الأثر البالغ في تنمية معلوماته وتنوير فكره، وتوسـيع معارفه، ومسـاعدته على البحث والتأليف، وقد كان يشغل قيّماً على خزانة الكتب في المدرسة المحمودية.

رابعا: البيئة الفكرية العلمية التي عاش فيها

عاش الحافظ ابن حجر–رحمه الله– (773– 852هـ) في بلاد مصر؛ ما بين الربع الأخير من القرن الثامن الهجري، والنصف الأول من القرن التاسع الهجري.

لقد حكمت مصـــر في تلك الفترة دولة المماليك، والتي دام حكمها ما يقرب من ثلاثة قرون (648–923هـــ). فالعصر الذي عاش فيه الحافظ–رحمه الله– في القرن السابع والقرن الثامن– عصر دولة المماليك، حيث بلغ العلم قمّته، وأوج مجده، وازدهاره، وبحيث كان العلماء متوافرون. وتميّز عصر دولة المماليك بشاط الحركة العلمية، وغدَت مصـــر– والقاهرة خاصـــة– تتبوأ مركز القيادة، و محط أنظار، وترحال الكثيرين من الفضـــلاء وطلبة العلم والعلماء، حتى قال المؤرخ ابن خلدون: "ولا أوفر اليوم في الحضارة من مصر، فهي أمّ العالم وإيوان الإسلام، وينبوع العلم"[34].

[34] ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، 1988. ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، بيروت، دار الفكر، ص 453.

معالم القرآن والسنة
MAᶜALIM AL-QURAN WA AL-SUNNAH
Journal of Ma'alim al-Quran wa al-Sunnah
Vol. 16, Special Issue, (2020), pp. 156-173
ISSN: 1823-4356 | eISSN: 2637-0328

وقال كذلك الحافظ السيوطي[35] (ت 911هـ)-رحمه الله- عن مكانة مصر: "واعلم أنّ مصر من حين صارت دار الخلافة، عظم أمرها، وكثرت شعائر الإسلام فيها، وعفت منها البدعة، وصارت محل سكن العلماء، ومحط أنظار الفضلاء"[36].

ولقد برز في عصر المماليك، علماء وأعلام كبار ممن أصبحت مؤلفاتهم، وتصانيفهم -في شتى التخصّصات- من أشهر المؤلفات، وأكثرها فائدة للعلماء وطلبة العلم، والباحثين إلى زمننا هذا. ويُرجع المؤرّخون، والكتّاب عوامل إزدهار دولة المماليك بالعلم والمعرفة، ونشاط الحركة العلمية فيها، إلى عوامل عدّة مجملها ما يلي:

عوامل خارجية:

من أهمّها الحدث الجلل؛ وهو سقوط بغداد على أيدي التتار، ومن ثم حيث اتّجهت الأنظار، وتحولت الأعناق واشرئبت؛ بعد ذلك إلى مصر، وتوافد إليها، ولاذ كل من نجا من العلماء وطلبة العلم. وكذلك سقوط أجزاء كثيرة من الأندلس؛ في أيدي الأسبان في القرن السابع الهجري، وبهذا انتقل النشاط العلمي من العراق والشام، والأندلس إلى بلاد مصر، حيث وجدوا فيها كل الترحيب والأمان.

عوامل داخلية، ومن أهمّها:

أ-رعاية سلاطين المماليك، وتعظيمهم للعلم، وعنايتهم للعلماء، وطلبة العلم، وظهر ذلك في استشارتهم في أمور الدولة العليا، وهذا من شأنه؛ أن رفعوا من مكانتهم وصار لهم منزلة رفيعة.

ب- احتكار أمراء المماليك للسياسة، مما كان له أبعد الأثر في تفرّغ العلماء لشؤون العلم والتعليم، والاشتغال بالتأليف، والتصنيف.

ج- إنشاء دور التعليم؛ من مدارس ومساجد، وهذا جعل من عملية التعليم، ودوره ؛ سبباً رئيساً في تنشيط الحركة العلمية ونشرها، مع اهتمامهم بالإنفاق عليها، وتخصيص ورصد الأوقاف، ودخل ثابت للطلبة والعلماء.

د- إنشاء المكتبات العلمية الضخمة، حيث أنشيء إلى جانب كل دار من دور التعليم (خزانة كتب)، وتزويدها بالمراجع الأساسية المهمّة؛ في مختلف الفنون والعلوم.

هـ- كثرة العلماء ونبوغهم؛ في شتّى مجالات العلم، وشعورهم بالمسؤولية الجسيمة والأمانة الملقاة على عاتقهم بنشر العلم، وتبليغه للناس .

---

[35] هو جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد الخضيري السيوطي الشافعي، ولد سنة 849هـ صاحب المصنفات الواسعة منها "تدريب الراوي في شرح تقريب النووي"، و"حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة"، و" تاريخ الخلفاء" وغيرها. انظر في ترجمته: ابن العماد الحنبلي "شذرات الذهب" 8/ 51.

[36] السيوطي، حسن المحاضرة، 2/ 94.

معالم القرآن والسنة
MAᶜALIM AL-QURAN WA AL-SUNNAH
Journal of Ma'alim al-Quran wa al-Sunnah
Vol. 16, Special Issue, (2020), pp. 156-173
ISSN: 1823-4356 | eISSN: 2637-0328

و- حرص الآباء على تنشئة أبنائهم على حب العلم وطلبه، وإدخالهم إلى دور العلم منذ الصغر؛ و كان هذا من عادة السلف؛ إحضار أولادهم الصغار إلى مجالس العلم.

وكانت المدارس ودور التعليم؛ تلعب دوراً هاماً في نشر العلم والمعرفة؛ ولم تكن دورها الإقتصار على تدريس العلون الدينية؛ بل كان هناك اهتمام واضح بعلوم أخرى؛ مثل علوم البيئة والفلك، والفلسفة والرياضيات، والطب والأدوية والعقاقير وغيرها.

كما كانت تلحق بتلك المدارس؛ خزائن الكتب التي تحتوي على ألوف العناوين من المصنّفات المؤلفات في سائر العلوم والفنون[37].

وكذلك كان لبناء السلاطين، وكبار وزارات الدولة، وحبهم في تشييد المدارس والمساجد، التي وجدت لها مكاناً خاصاً في قلوب العلماء وطلبة العلم و العامة؛ فشغلوها وعمروها.

كما كانت دور الكتب وخزائنها مملوءة بالكتب المتنوّعة في مختلف العلوم والفنون والمعرفة، وما زالت دور الكتب ومكتباتها في جميع أنحاء العالم مشحونة بألوف المخطوطات التي ترجع تصنيفها إلى عصر سلاطين المماليك بمصر. والتي تناولت معظم أنواع المعرفة؛ كالأدب والتاريخ والجغرافيا والعلوم الدينية، والطب والزراعة والعقاقير والفلك، والهندسة والحيوان وسائر أنواع المعارف الأخرى.

وكانت البيئة العلمية الفكرية في ذاك العصر، في بلده مصر والقاهرة خاصّة- في ظل سلاطين دولة المماليك- مشبّعة و مشهورة بالعلم والعلماء، وكانت محطة الترحال، ومحط أنظار طلبة العلم، الذين توافدوا إليها من كل فجّ عميق.

فوجدوا فيها مراحاً خصباً، وظلاً ظليلاً ؛ فنشطت الحركة العلمية وازدهرت، وخاصة الكتب الموسوعية الكبيرة، واجتمع لدى الحافظ –رحمه الله-؛ كبار العلماء ونوابغهم في شتّى أنواع الفنون؛ فاستفاد منهم؛ وأفاد.

وأشير هنا إلى بعض العلوم والفنون، وبعضاً من كبار من اشتهر به في ذاك العصر:

في اللغة وعلومها: اشتهر منهم ابن منظور (ت 711هـ)، وابن هشام (ت 761هـ)، وابن عقيل (ت 769هـ)، والشاعر ابن نباتة (ت 768هـ)، والفيروزآبادي (ت 817هـ)، والقلقشندي (ت 821هـ) وغيرهم.

في الفقه وأصوله: اشتهر منهم في المذهب الشافعي؛ تقي الدين السبكي (ت 756هـ)، وجمال الدين الأسنوي (ت 772هـ)، والزركشي (ت 794هـ)، وابن الملقن (ت 804هـ)، والبلقيني (ت 805هـ) وغيرهم.

[37] الحجي، الدكتورة حياة ناصر، 1412هـ- 1992م. صور من الحضارة العربية الإسلامية في سلطنة المماليك، الكويت، دار القلم، 135-195.

معالم القرآن والسنة
MAᶜALIM AL-QURAN WA AL-SUNNAH
Journal of Ma'alim al-Quran wa al-Sunnah
Vol. 16, Special Issue, (2020), pp. 156-173
ISSN: 1823-4356 | eISSN: 2637-0328

وفي المذهب المالكي؛ خليل بن اسحاق (ت 767هـ)، وعيسى الزواوي (ت 743هـ)، وبهرام الدميري (ت 805هـ)، وغيرهم.

وفي المذهب الحنفي، ابن التركماني (ت 731هـ)، والزيلعي (ت 743هـ)، وابن الهمام (ت 861هـ) وغيرهم.

وفي المذهب الحنبلي؛ شيخ الإسلام ابن تيمية (ت 728هـ)، وابن القيّم (ت 751هـ)، وابن مفلح (ت 763هـ) وغيرهم.

وفي علم الحديث ومصطلحه، اشتهر منهم؛ المزي (ت 742هـ) ، والعراقي (ت 806هـ)، والهيثمي (ت 807هـ)، وغيرهم.

وفي علم التاريخ والسير والطبقات، اشتهر منهم؛ ابن خلكان (ت 681هـ)، والذهبي (ت 748هـ)، والصفدي (ت 764هـ)، وابن خلدون (ت 808هـ)، وابن دقماق (ت 809هـ)، والمقريزي (ت 845هـ)، وابن تغري بردي (ت 874هـ)، وابن قاضي شهبة (ت 851هـ) وغيرهم.

وفي علم الجغرافيا والطبيعة والحساب والفلك، اشتهر منهم، ابن فضل الله العمري (ت 749هـ)، وكمال الدين الدميري (ت 808هـ)، وغيرهم.

وفي علم التفسير وعلوم القرآن، اشتهر منهم؛ أبو حيان الأندلسي (ت 754هـ)، والزركشي (ت 794هـ)، والقرطبي (ت 671هـ)، والبيضاوي (ت 685هـ)، وابن كثير (ت 774هـ) وغيرهم.

ونجمل القول بأن الحافظ –رحمه الله– عاش في بيئة علمية باهرة، تميزّت بكثرة العلماء والفضلاء، ودور العلم، وسعة المصنفات الموسوعية الكبيرة، وكان له أكبر الحظّ والنصيب في تلك الحياة العلمية.

فتلك ومضات سريعة عن العوامل والمكتسبات التي جعلت من الحافظ ابن حجر –رحمه الله– يتبوأ المكانة العالية في العلم والمعرفة، بين أقرانه ومعاصريه، والتي ساهمت في تكوينه الفكري العام.

4. الخاتمة

فها قد وصلت إلى آخر المطاف، أُراني أضمِّن أهم النتائج في النقاط الآتية :

أ. إنّ المكانة العلمية؛ التي تبوّأها الحافظ ابن حجر أكسبته شهرة واسعة، فأصبح مهوى أفئدة طلبة العلم، ومحطة ترحالهم، حيث توافدوا عليه من الآفاق، وحضر دروسه العلماء والأعيان؛ بل قد استفاد منه كثير من شيوخه.

معالم القرآن والسنة
MAᶜALIM AL-QURAN WA AL-SUNNAH
Journal of Ma'alim al-Quran wa al-Sunnah
Vol. 16, Special Issue, (2020), pp. 156-173
ISSN: 1823-4356 | eISSN: 2637-0328

ب. من مكونات تكوين الحافظ ابن حجر العلمية. مواهبه وطبيعته ونزوعه: وهب الله تعالى الحافظ ابن حجر وأودع في نفسه ذكاءً حاداً، وحافظة وذاكرة قويّة نشطة، وقدرة عجيبة على المطالعة، وطول النّفس في طلب العلم، والإنكباب على العلماء ومجالسهم.

ج. ومن مكونات تكوين الحافظ ابن حجر العلمية: طلبه للعلم من العلماء والمشايخ الأعلام،كان ابن حجر ذا همّة عالية، وعزيمة قويّة، فأخذ في الطلب عن رؤوس أعلام عصره وحفّاظه، فتحصّل وتلقى عنهم، وانتفع بهم، وارتحل في سبيل ذلك، حيث هيّأ الله تعالى له في كل علم وفنّ؛ نوابغه وجهابذته.

د. ومن مكونات تكوين الحافظ ابن حجر العلمية: حياته الخاصة وتجاربه، ودراساته الشخصية. فالحافظ ابن حجر كان من أسرة علمية محافظة، فوالده كان محبّاً للعلم والعلماء، وكان يصحبه إلى مجالس العلم. وكما كانت لرحلاته العلمية في داخل مصر وخارجها، والتقاؤه بكبار العلماء، وأخذه العلم عنهم، فتكوّنت لديه وتجمّعت علوم في فنون شتى. وأضف إلى ذلك مناصبه ووظائفه الهامّة؛ التي تولاّها وشغلها في فترة حياته. ومن العوامل التي توفرت لديه أيضاً؛ توفر الكتب والمراجع العلمية، وكثرة خزانات الكتب في عصره، وفي بلاده مصر خاصة.

هـ. ومن مكونات تكوين الحافظ ابن حجر العلمية: البيئة الفكرية العلمية التي عاش فيها؛ عاش الحافظ ابن حجر في بلاد مصر؛ في عصر دولة المماليك، حيث بلغ العلم قمّته، وأوج مجده، وازدهاره، وبحيث كان العلماء متوافرون. وتميّز عصره بنشاط الحركة العلمية، وغدَت مصر والقاهرة خاصة تتبوأ مركز القيادة، ومحط أنظار، وترحال الكثيرين من طلبة العلم والعلماء، ولقد برز في عصر المماليك، علماء وأعلام كبار ممن أصبحت مؤلفاتهم، وتصانيفهم في شتى التخصّصات من أشهر المؤلفات، وأكثرها فائدة للعلماء وطلبة العلم، والباحثين إلى زمننا هذا.

REFERENCES (المصادر والمراجع)

[1] Abu zuhra, Muḥammad ibn Aḥmad, 1978, *Al-Shafi'i hayatuhu*., Damsyik, Syria: Dar Fikr. al-'Arabi.

[2] Adh-Dhahabī, Shams ad-Dīn Abū ʿAbdillāh Muḥammad ibn Aḥmad ibn ʿUthmān ibn Qāymāẓ at-Turkumānī ad-Dimashqī, 1402 h, *Siyar al-A'lam al-Nubala'*. Beirut: Mu'assasah al-Risalah., Syria: Dar Fikr.

[3] Adh-Dhahabī, Shams ad-Dīn Abū ʿAbdillāh Muḥammad ibn Aḥmad ibn ʿUthmān ibn Qāymāẓ at-Turkumānī ad-Dimashqī, 1998, *Tadhkirat al-huffaz*, Beirut Lubnān, Dār al-Kutub al- Ilmiyah.

[4] Al-Ḥamawī, Yāqūt ibn 'Abd Allāh al-Ḥamawī, 1995, *Mu'jam al-buldān*, Beirut Lubnān, Dār Sadir.

Journal of Ma'alim al-Quran wa al-Sunnah
Vol. 16, Special Issue, (2020), pp. 156-173
ISSN: 1823-4356 | eISSN: 2637-0328

[5] Al-hejji, hayat nasir, 1992, sowar min al-hadarah al-arabia al-islamiyyah fi Salṭanat al-Mamālīk, kuwait: Dār al-qalam.

[6] Al-Sakhāwi, Shams al-Dīn Muḥammad ibn ‘Abd al-Raḥmān al-Sakhāwi, 1999, *Al-Jawahir wa al-Durar fi Tarjamat Shaykh al-Islam Ibn Hajar*, Bayrūt, Lubnān Dār Ibn Ḥazm.

[7] Al-Sakhāwi, Shams al-Dīn Muḥammad ibn ‘Abd al-Raḥmān al-Sakhāwi, 1992, *Al-Daw' al-lami` li ahli al-Qarni al-Tasi*, Bayrūt, Lubnān : Dār Jail.

[8] Al-Shawkānī, Muhammad ibn Ali ibn Abdullah al-Shawkānī, 2006, *al-Badr at-Taali' bi Mahaasin man Ba'd al-Qarn as-Sabi*, Damsyik: Ibn Kathir.

[9] Al-Suyūṭī, Abū al-Faḍl ‘Abd al-Raḥmān ibn Abī Bakr ibn Muḥammad Jalāl al-Dīn al-Khuḍayrī, 1927, *Nazm AlEqyan Fey Aayan AlAayan*, Beirut Lubnān, al-maktabah al-Ilmiyah.

[10] Al-Suyūṭī, Abū al-Faḍl ‘Abd al-Raḥmān ibn Abī Bakr ibn Muḥammad Jalāl al-Dīn al-Khuḍayrī, 1983, *Tabaqat al-huffaz*, Dār al-Kutub al- Ilmiyah, Beirut Lubnān,

[11] Al-Suyūṭī, Abū al-Faḍl ‘Abd al-Raḥmān ibn Abī Bakr ibn Muḥammad Jalāl al-Dīn al-Khuḍayrī, 1967, *Ḥusn al-muḥaḍarah fi tarikh msr walkahrah*, Dār al-Kutub al- arabiyah. Cairo.

[12] As Sam‘ānī,‘Abd al-Karīm ibn Muḥammad Sam‘ānī, 1962, *AlAnsab*, India:.daerah maarif othmaniah, hyderabad.

[13] Ibn al-ʿImād, ʿAbd al-Ḥayy bin Aḥmad bin Muḥammad ibn al-ʿImād al-Ḥanbalī Abū al-Falāḥ, 1998, *Shadharāt al-dhahab fī akhbār man dhahab*, Beirut Lubnān, Dār al-Kutub al-Ilmiyah.

[14] Ibn Fahd, Taqī al-Dīn Muḥammad almakki, *Laḥẓ al-Alḥāẓ bi-Dhayl Ṭabaqāt al-Ḥuffāẓ*, Beirut Lubnān, Dār al-Kutub al- Ilmiyah.

[15] Ibn Ḥajar, Shihāb al-Dīn Abū ‘l-Faḍl Aḥmad ibn ʿAlī ibn Muḥammad ibn Ḥajar al-ʿAsqalānī （1986）, *Inba al-ghamar fi abna alomar*, Beirut Lubnān: Dār al-Kutub al- Ilmiyah.

[16] Ibn Ḥajar, Shihāb al-Dīn Abū ‘l-Faḍl Aḥmad ibn ʿAlī ibn Muḥammad ibn Ḥajar al-ʿAsqalānī, 1972, *al-Durar al-Kamina*, daerah maarif othmaniah, hyderabad, india.

[17] Ibn Iyas, Muḥammad ibn abi Iyas, 1984, *Bada'I al-Zuhur fi Waqa'I al-Duhur*, Almisriya Lilkitab.

[18] Ibn Khaldūn, ‘Abd al-Raḥmān ibn Muḥammad, 1988, Kitāb al-‘Ibar wa-Dīwān al-Mubtada’ wa-l-Khabar fī Ta’rīkh al-‘Arab wa-l-Barbar wa-Man ‘Āṣarahum min Dhawī ash-Sha’n al-Akbār, Bayrūt, Lubnān : Dār Fikr’.

[19] Ibn Khallikān Shams al-Dīn: Aḥmad ibn Muḥammad ibn Ibrāhīm ibn Abī Bakr, 1972, *Wafīyāt al-aʿyān wa-anbāʾ abnāʾ al-zamān*, Bayrūt, Lubnān : Dār Ṣādir.

[20] Ibn Taghrībirdī, Abū al-Maḥāsin Jamal al-Din Ibn Yūsuf Ibn Taghrībirdī,（1992）, *Al-Nujūm al-Zāhirah fī Mulūk Miṣr wa-al-Qāhirah*, Beirut Lubnān: Dār al-Kutub al- Ilmiyah.